

## التقوى

### "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون"

عندما يتكلم الإنسان أو يقرأ، عليه أن يحدّد المعاني الفعلية للكلمات. والشرط الأساسي للتفاهم بين الناس هو أن تعني لهم الكلمات والمصطلحات المستخدمة المعنى ذاته. صورة عن عدم التفاهم على معاني الكلمات - وخاصة الروحية منها- نجدها في الإنجيل، بين يسوع وتمدّيني زمانه. ولقد ضاق بيسوع الأمر لأنّ هؤلاء لم يريدوا أن يفهموه، فقال لهم: "طبّلنا لكم فلم ترقصوا ونُحنا فلم تبكوا...". و"قد تبرّأت الحكمة من بنيتها!". قال لهم يسوع: "أحبّوا" وهم فهموا "قايضوا"، أما هو فأصرّ أنّ الحبّ دون مقايضة، "فأيّ أجر لكم إن أحببتم الذين يحبّونكم؟"، "أحبّوا أعداءكم!" قال "توبوا" ففهموا أن يتمّموا بعض الوصايا. لذلك جاء إليه الشابّ الناموسيّ قائلاً: ماذا عليّ أن أفعل بعدُ وقد أتممت الوصايا كلّها؟ كيف أتوب وأنا بارٌّ؛ فأجابه يسوع تُبّ لتصير كاملاً وليس مبرراً" - تعال اتبعني- بع كلّ ما لك ووزعه على الفقراء... عدم التفاهم هذا بسبب تبدّل مفاهيم الكلمات واضح جدّاً في العظة على الجبل: "سمعت أنّه قيل للأقدمين... أمّا أنا فأقول لكم...". لهذا من الضروريّ أن نتساءل دوماً: ماذا نفهم من كلمات هامّة مثل: "المحبّة- الإيمان- التواضع- العطاء- التقوى..."، وأن نقرأ ماذا تعني هذه الكلمات فعلاً في الإنجيل، وكما جاءت على فم يسوع وفي أحاديثه.

"التقوى" إحدى أصعب هذه الكلمات. وهنا، في الرسالة اليوم، يتطرّق إليها بولس الرسول كطريقة العيش للمسيحيين، ويمدح هذه الصورة في تلميذه تيموثاوس وفي عائلته. فما معنى التقوى كما نصادفه بين العديدين منّا؟

للـبعض تعني التقوى: حفظ علاقة معيّنة مع الله. وبالتالي التقويّ هو من يظهر للناس أنّه يواظب على الكنيسة ويقدم واجباته فيها دون نقصان، فهو يحفظ الأصوام ويقوم بالإحسان ولا ينس أدقّ وأصغر وصية روحية أو طقسية، ويمكنه بعد ذلك أن يشعر بأنّه أنهى إتمام كلّ الطلبات الإلهية! تلك المظاهر

هي ممارسات جيّدة، ولكن فقط عندما تجوز بالإنسان إلى ما بعد المظاهر! فهذه كلّها ممارسات تقويّة قد تساعدنا على اقتناء التقوى، وقد تفشل!

فالتقوى لهؤلاء تعني بالنهاية الخوف أيضاً: "أتقي الله" يعني أن تخاف الله. فالله شخص جبار وعادل. إذا ما ظلمتَ آخرَ أو أخطأت ولم تحسب للمظلوم حساباً، فاحسب لله ألفَ حساب! وهكذا على الإنسان التقيّ أن يخاف مخالفة الوصيّة الإلهيّة، وهذه هي التقوى. لكن حاشى!

للبعض الآخر تعني التقوى: "الهروب من العالم الأثيم"! فلما كان العالمُ يظهر غير محبّ لله بل ذاهبٌ في غوايته وضلاله، إذن التقوى تعني -لهؤلاء- أن نعيش "عكس التيار"، وخارج العالم، وضدّ مغرباته. فترى البعض يبالغون في التغرّب عن مظاهر الدنيا الباطلة إلى درجة أنّهم يبطلون فيها ما هو مقبول وجميل أيضاً. وتقول "هذه التقوى" صاحبها إلى إدانة الناس على كلّ تصرّفاتهم وندعتهم بالخطاة كما فعل الفريسيّ في الإنجيل اليوم. وتوصل هذه التقوى المزيّفة تقيّها إلى التعالي على الآخرين وليس إلى الاتّضاع أمام الله. ويفسّر هؤلاء التقوى برفض أفراح العالم ومباهجه حتّى البريء منها، ويلزمون التقوى بالكآبة والانغلاق والوجه العابس والقلب المهموم والتشاؤم، الخ...

أمّا "التقوى" الحقيقيّة، في الكتاب المقدّس، فإنّها تحمل معانيّ مختلفة وأعمق من تلك المظاهر. "التقيّ" أو البارّ يعني "مَن يحيا كما يريد الله أن يعيش". التقوى هي "الصورة" التي يريد الله أن تظهر على وجه كلّ إنسان! لذلك هناك ثلاثة مظاهر للتقوى الحقيقيّة، ودونها يكون وجه التقوى قناعاً للأنايّة والتبرير والتعالي وليس صورةً لوجه يسوع المحبّ.

إذن، ما دامت التقوى هي العيش بحسب الوصيّة الإلهيّة، فإنّ الربّ يسوع أعلن صراحةً: "وصيّة واحدة أعطيتكم: أحبوا بعضكم بعضاً". إذن هذه هي التقوى. فلا نقيس التقوى فقط من مظاهر العلاقة مع الله، إنّما من مظاهر علاقة الإنسان بالآخرين. هناك مع الآخر يجب أن تظهر التقوى. لذلك ليست الممارسة غير الواعية للطقوس ولا الخوف ورفض العالم هي مظاهر التقوى الحقيقيّة. إنّما هناك علاقات وطريقة تعامل مع الناس معيّنة هي التي تحدّد وتوضح معنى التقوى. أن نتظاهر بالتقوى مع الله، هذا أمرٌ سهل. وإذا ادّعينا ذلك فلن يظهر الله ويكذّبنا الآن! ولكن علينا أن نثبت تقوانا مع الناس بنوعيّة تصرّفاتنا وكيفيّة تعاطينا معهم.

أولاً، وقد نتفاجأ، إنَّ مظهر التقوى الأول هو "الفرح"! ولا يعني الفرح هنا اللهو والتسلية والضحك بدون معيار وبمعانٍ فارغة، كما لا يعني الفرح الهروب من المشاكل والمسؤوليات والعيش في الفوضى واللامبالاة! يعني الفرح: إنَّ العلاقة التقوية للمؤمن مع الله تعطيه (للمؤمن) الشعور بالثقة والثبات. هنا التقوى ثمرة الإيمان. "على الربِّ توكلتُ فلا أخزي..." تقول المزمير. ومن له هذه الثقة بالله عنده التقوى الحقيقية، فهو عند ذلك مثل بولس وإن كان يحيا في الاضطهاد والآلام والمشقات والحروب، إلاَّ أنَّه يملك بتقواه "إيماناً وأناة ومحبةً وصبراً"! ومن هنا يأتي الفرح. إننا نحمل مسؤولياتنا، ونصطبر على آلامنا من جهة، كما وملتزم بمسؤوليات الآخر الضعيف بحريرتنا ونشاركه آلامه من جهة ثانية. إنَّ الاتكال على الله وثقتنا، من تقوانا، بمحبته وعنايته يعطينا الفرح. "التقي" إنسان فرح ووجهه بهج دائماً. لهذا أوصى الربُّ يسوع: عندما تصوم ادهنْ وجهك واظهر للناس فرحاً. "التقي" هو أكثر من فرح، إنَّه إنسان "مُفرح"، حيث يحلُّ يحلُّ معه السلام والبساطة والأمانة وبالتالي الفرح. "التقي" هو من يسهر على أن يكون وجوده بين الآخرين سبب فرح حقيقي. "التقي" رجل سهران ليعرف كيف يمكنه أن يبذل ويحبَّ ويُسعد الآخر قدر ما يستطيع كلَّ لحظة. لهذا "التقي" رجل "مصغ" يركّز نظره - بصيرته - على هموم الآخر ومشاكله، ويحاول دائماً أن يفهمه بالعمق ويتعرّف لحاجاته، حتّى بعدها يعرف كيف يجعله فرحاً أكثر. إذا كان الناس غالباً يوحدون التقوى بالإحسان، فهذا حقيقي. لكنَّ الحاجة الحقيقية لكلِّ الناس، من معوزين ومملوئين، هي الفرح، الجميع يعوزهم الفرح. وكلَّ "حسنة" أو خدمة غايتها رفع الألم والكآبة من حياة الناس. "طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله - أتقياء - يدعون". "التقي" لا ينظر إلى ما عند الآخر ليستهلكه وإنما ينظر لمشاكل الآخر وحاجاته علّه يساعد في تقديم "الفرح" لحياة أخيه، فطوبى لصانعي الفرح لأنهم أتقياء يدعون.

وثانياً، التواضع هو مظهر التقوى الثاني. ما هو الحلُّ المسيحيّ للإنسان في عالم ملآن بالمتكبرين ويعجّ بأصحاب المصالح والاستهلاكيين؟ ما الحلُّ لنا في وسط لا يعتذر فيه أحد ويدين الواحد على الفور وفي كلِّ شيء أخاه! ما الحلُّ في عالم لا يشعر فيه أيّ إنسان أنّه مخطئ؟ "لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ" أوصانا يسوع. عندما يختلف اثنان، يختلفان ولدى كلِّ منهما القناعة أنّه هو المحقّ والمصيب والآخر هو المخطئ، وهذه طبيعيّ! لكنَّ الحلُّ المسيحيّ هو فوق المعتاد والطبيعيّ. لا بدّ لي وإن كان لديّ الشعور أنّي على حقّ وأنَّ الآخر على خطأ، لا بدّ لي أن أترك هذا الحقّ وأقول يجب أن أكون ليس "على حقّ" بل "في التواضع". ما هو التواضع سوى تفضيل محبة الآخر على كرامتي. التواضع هو تفضيل تحسين علاقتي مع الآخر على حساب حسنات وخيرات وهمية قد لا يحفظها الآخر لي في

العلاقة. أهانني؟ لكن محبتي له أهم من الكرامة! ينساني؟ لكن محبتي له فوق واجباته نحوي! وهكذا دواليك... هذه هي التقوى، ملآنة بالتواضع. لذلك ليس التقويّ ذلك الإنسان المنعزل والمنفرد البعيد عن الناس، على العكس التقويّ هو الإنسان ذو الطباع السلسة والعلاقات السهلة التي تجعل الناس يستعذبون الاتصال به والتعامل معه، التقويّ صديق طيب ومرغوب ومشتهى!

ثالثاً، العطاء هو المظهر العميق للتقوى. ليس الفرح إذن إشاعة جوّ من التسلية والضحك، الفرح هو رفع الآلام. ليس التواضع ذلاً، التواضع هو تجاوز الحدود العادية من أجل النجاة بالعلاقة والمحبة مع الآخر. لذلك نستنتج على الفور أنّ علاقة التقوى مع الآخرين هي علاقة مسؤولة وليست مجرد مظاهر. لهذا التعبير عن مصداقية الأمرين السابقين (الفرح والتواضع) هو العطاء، والعطاء بسخاء، وذلك على الصعيدين الماديّ والروحيّ، ولا شيء ماديّ في العطاء، لأنّ العطاء يجعل المادّة روحاً ويفسرّ الروح بالمادّة. تعطي بقدر ما تحبّ. المحبة ليست إرسال مشاعر، المحبة تعني التزام الآخر. المحبّ الحقيقي لا يقبل أن يكون وضع أخيه أدنى من وضعه، وعلى كلّ الأصعدة، فهو "يفار" عليه كما يفار على نفسه، ويعمل لأجل بنيانه الروحيّ وبنيانه الماديّ كما يبني ذاته. على هذا المعيار: "العطاء والمشاركة" فلنقسّ محبتنا وتقوانا.

ولكن، لكي لا يظن أحدنا أن العبادة والطقوس سبب لعدم التقوى الحقيقية، علينا أن نوضح أنّ زيف العبادة هو السبب، لكن العبادة والطقوس هي الأسس العمليّة والأفضل لعيش التقوى بالمسيح يسوع. الطقوس والصلوات والأصوام والأعياد وكلّ الأسرار الإلهيّة هي الأداة الأفضل من أجل حياة التقوى. لأنّ الطقوس تؤمّن قراءة الكتاب من ناحية وساعات التأمل والأسرار التي تضع المؤمن الممارس في عمليّة الحياة الروحيّة كلها. هكذا تصير العبادة الحقيقيّة الدافع والإطار والحياة للتقوى، فهي تولّد التقوى، وفي إطارها نحيا التقوى، حيث يصير الطقس ليتورجيا محبة الآخر، وتمدّننا العبادة بالروح والفرح والتواضع لنحافظ على التقوى "مستمريّن على ما تعلّمناه وموقنين به عالمين أنّنا تعلّمناه من بولس وسيده الربّ يسوع: أن نعيش بالتقوى"، آمين.